كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، في حفل تخريج طلاب السنة في كليّة الطبّ، في ٢١ كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠١٧ : جائزة كارل ستورز Karl Storz، ومِنَح الإستحقاق والشهادات (الديبلومات) الجامعيّة للسنة ٢٠١٧ في الجراحة التنظيريّة، والجراحة المجهريّة، وعلم الشيخوخة والإعاقة الحسيّة.

في نهاية عام ٢٠١٧ هذه، ومع اقتراب عيدَي الميلاد ورأس السنة الجديدة، يطيب لي ويسرّني أن أنضمّ إليكم في كليّة الطبّ من أجل هذا الإنجاز الأكاديميّ والرسميّ الأخير، ألا وهو حفل التخرّج الأخير لهذه السنة من أجل مَنح جائزة كارل ستورز، ومِنَح الإستحقاق والديبلومات الجامعيّة للعام ٢٠١٧ في الجراحة التنظيريّة، والجراحة المجهريّة، وطبّ الشيخوخة والإعاقة الحسيّة. كلّ واحدة من هذه التخصّصات تتوافق مع حاجة معيّنة ومع علاج الأمراض التي تتطلّب التدخّلات التكنولوجيّة المتقدّمة والمتطوّرة أكثر فأكثر والتي تتطلّب الكثير من الدقّة والنهج العلميّ. البعض الآخر يتطلّب الكثير من الإصغاء والتعاطف. أقدّم تهانئيّ وتهاني الجامعة لكم جميعًا أعزّاءنا الطلاب، الأطبّاء والمتخصّصين، كلٌّ في مجال تخصّصه، لأنّكم اجتزتم بشجاعة حاجز الحياة المهنيّة اليوميّة لتحوزوا على هذه الشهادة وتفتحوا أمامكم أبواب مستقبل واعد.

الطبّ كلّه يتوجّه نحو فعل الشفاء أو التخفيف من المعاناة. ولكن وراء هذا العمل الذي قد يجلب الشفاء أو يخفّف الألم، دعونا لا ننسى أنّ هناك دائمًا كائن بشريّ. هناك المريض والطبيب. المريض ليس فقط مجموعة عضويّة نُخضعها لعمليّة جراحيّة في غرفة متخصّصة أو نعالجها بالأدوية ولكنّه قبل كلّ شيء كائن حيّ ووجود تاريخيّ وإن لَقِي يومًا حتفه. الطبيب، حتّى لو كان يرتدي قناع مهنيّته، هو إنسان أقسم يمين أبقراط. السؤال الذي أطرحه على نفسي هو التالي : كيف يمكن لهذا الطبيب أن يساعد هذا المريض على تحمّل مرضه كإنسان سواء شُفي أو استسلم وخضع للمرض ؟ أنا لا أدعوكم لأن تصبحوا علماء نفس أو معلّمين روحيين أو كهنة، ولكنّي أدعوكم أن تفكّروا بوجود بدائل وُضِعَت اليوم في أكبر المراكز الطبّية لا من أجل أن يُهزَم المرض بل من أجل أن يُعاش بشكلٍ مختلف. الطبيب اليوم، حتّى لو كان الأكثر تقدّمًا من الناحية التكنولوجيّة، لا يمكنه أن يهمّش هذا الجانب كما لا يمكنه أن ينسى أنّ علاقته بالمريض يجب أن تكون إنسانيّة بقدر ما يساعد المريض على عدم النظر إلى المرض على أنّه انتكاسة بل اعتباره فرصة للنموّ.

إحدى أشهر الأمثلة هو "نيتشه" **Nietzsche** الذي يدّعي أنّه أصبح فيلسوفًا بفضل المرض، حتّى أنّه بنى كلّ فكره على "إرادة العيش" التي شعر بها مع دنوّ أجَلِه. وهو يذهب إلى حدّ أن يفسّر، عن طريق هذا الإختبار، "لماذا (هو) يؤلّف كتبًا جيّدة جدًّا" : "المرض حرّرني ببطء من بيئتي ؛ جنّبني كلّ انفصال، كلّ مسعى عنيف وغير ومُريب. (...) سمح لي، لا بل أمرني بالاستسلام للنسيان ؛ كرّمني بأن أكون مرغمًا على ملازمة الفراش، والبقاء في وضع من الخمول، والإنتظار، وتحمّل الأمور بصبر ... وهذا هو بالضبط ما يُطلق عليه اسم التفكير" (***Ecce Homo*** (هذا هو الإنسان)، ١٨٨٨)."

تجربة هذا الفيلسوف تلتقي مع تلك التي يعيشها اليوم العديد من المرضى فيبدو الأمر حيويًّا إذ تتمّ إعادة إدراج المرض في تماسك الوجود الشخصيّ، و"الاستفادة منه" من أجل تحقيق النهضة القادمة. يمكن أن يتمّ ذلك من خلال الكتابة والفنّ والروحانيّة والإلتزام الذي يدعو إلى الترابط... في بلدنا، من الشائع أن نجد أنّ الأسرة هي عاملٌ مهمّ للمريض ومن هنا هناك فرصة إضافيّة أن يستمرّ هذا المريض في النظر إلى المستقبل بنظرة متفائلة.

في هذه اللحظات التي ننظر فيها إلى المغارة حيث يوجد الطفل يسوع، الضعيف والصغير، لكنّه الأعظم وهو كلمة الحياة، نرى فيه طبيب المستقبل للنفس البشريّة، ذلك الذي يحرّر من الخطيئة ومن مضاعفاتها كما نرى فيه طبيب الجسم لأنّه، بالإضافة إلى دوره كمعالج للنفوس، كان يجترح المعجزات ونحن نعلم، وفقًا للأناجيل، حصول ما لا يقلّ عن ٣٠ حالة شفاء مرضى، لا بل المئات منها في بعض الأحيان، فقط من خلال كلمته وعن طريق بثّ الثقة في قلب هؤلاء المرضى. وهكذا نجد فيه النموذج الصالح للطبيب الذي يعرف كيفيّة التصرّف مع مرضاه في ما يتخطّى المرض نحو معنى الحياة والوجود.